أهمية الإسناد وبداية دراسته

د. محمد علي عمر أبو بكر*

ملخص البحث

إن علم الإسناد من أهم علوم الإسلام، فبه يتميز صحيح النصوص والآثار المنقولة عن النبي ﷺ فَمَن بعدَه عن سقيمها. ولم يكن الناس في عهد النبي ﷺ في حاجة لهذا العلم لأن الناس في ذلك العهد لم يعرفوا تعمد الكذب عليه، ولا كان العهد قد طال فيكثر الخطأ. ولكن ظهر بعد ذلك قوم سوء استحلوا الكذب على النبي ﷺ، فضلاً عن الخطأ غير المتعمد، فانبرى لذلك جهابذة العلماء فوضعوا له القواعد وفصلوا فيه حتى لم يتركوا مجالاً لكذاب يدس بضاعته بين المسلمين.

وفي هذا البحث تفصيل لتعريف الإسناد والعلوم المتعلقة به، وبيان لأهميته، ثم بحث بدء التفتيش في الإسناد وذكر أصحاب السبق فيه. وقد فصلت أيضاً ما فضل الله به هذه الأمة من اختصاصها بهذا العلم الشريف.

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونثني عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل لـه ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسولـه صلى الله عليه وعلى آلـه وصحبه وذريته وأهل بيته الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً.

* أستاذ مساعد بقسم السنة وعلوم الحديث، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، ونائب عميد الكلية.

أما بعد، فإن علم الإسناد علم جليل وفريد وقد عني العلماء به حديثاً وقديماً وقد أخذ حظه من العناية والاهتمام منذ عصر التابعين وأتباعهم إلى يومنا هذا حيث لم يخل عصر من العصور من علماء خصهم الله ﷻ بهذه الخصوصية. ولذا كان من أهم واجبات المُحَدِّث أن يذكر رجال سند حديثه ليبحث عن أحوالهم فيقبل خبر من استوفى شروط الصحة ويرد حديث من لم يكن شأنه كذلك.

إن الله ﷻ قد خص الأمة المحمدية علي نبيها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وفضلها وشرفها بخاصية الإسناد من أجل تثبيت دينها وصيانته من التحريف والانتحال والضياع، وهذه الخاصية لم تكن لبقية الأمم السابقة قديمها وحديثها.

وقد اشتمل هذا البحث على مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة:

- المقدمة: وهي مدخل إلى البحث، وهي التي نحن فيها.
- المبحث الأول: وخصصته لتعريف الإسناد.
- المبحث الثاني: وفيه بيان أهمية الإسناد.
- المبحث لثالث: وفيه تفصيل بداية البحث فيه.
- المبحث الرابع: وفيه بيان اختصاصه بهذه الأمة.
- الخاتمة: وفيها نتائج البحث.

المبحث الأول: التعريف بالإسناد

أولاً: مفهوم الإسناد لغة

قال ابن منظور: "السند ما ارتفع من الأرض في قبل الجبل أو الوادي والجمع أَسْنَاد لا يكسر على غير ذلك، وكل شيء أسندت إليه شيئاً فهو مُسْنَد، وقد سَنَد إلى الشيء يَسْنُد سُنوداً واستَنَد وتساند وأَسْنَد وأَسْنَد غيرَه، ويقال: ساندته إلى الشيء فهو يتساندُ

إليه أي أسندته إليه،...، وما يُسند إليه يسمى مِسْنَداً وجمعه المَسَاند،...، وفلان سَنَد أي معتمد، وأَسْنَدَ في العدو اشتد وجمد"(١).

ثانياً: مفهوم الإسناد في الاصطلاح

الإسناد هو رفع الحديث إلى قائله، قال البدر بن جماعة(٢) والطيبي(٣): "هو الإخبار عن طريق المتن(٤). وقال ابن جماعة: وأخذه إمَّا من السند وهو ما ارتفع وعلا من سفح الجبل لأنَّ المُسْنِدَ يرفعه إلى قائله أو من قولهم: فُلان سند أي معتمد فسُمي الإخبار عن طريق المتن سنداً لاعتماد الحُفَّاظ في صحَّة الحديث وضعفه عليه...، قال الطيبي: وهُمَا مُتقاربان في معنى اعتماد الحُفَّاظ في صحَّة الحديث وضعفه عليهما". وقال ابن جماعة: وأمَّا المسنَد - بفتح النُّون - فيطلق ويراد به أحد ثلاثة أمور:

الاصطلاح الأول:

الحديث المتصل الإسناد من أولـه إلى منتهاه مرفوعاً إلى النبيﷺ(٥). وقال الخطيب البغدادي(٦): "هو عند أهل الحديث ما اتصل إسناده إلى منتهاه، وأكثر ما يستعمل فيما جاء عن النبيﷺ دون غيره"، وقال: "ووصفهم الحديث بأنه مسند يريدون أنّ إسناده متصل بين راويه وبين من أسند عنه لأن أكثر استعمالهم هذه العبارة هو فيما أسند عن النبيﷺ خاصة، واتصال الإسناد فيه أن يكون كل واحد من رواته سمعه ممن فوقه حتى ينتهي ذلك إلى آخره وإن لم يبين فيه السماع بل اقتصر على العنعنة(٧)". قال الحافظ السيوطي في تعليقه على كلام الحاكم في تعريف المسند: "هو بخلاف الموقوف(٨)، والمرسل(٩)، والمعضل(١٠)، والمدلس(١١)، وحكاه ابن عبد البر(١٢) عن قوم من أهل الحديث وبه جزم شيخ الإسلام(١٣) في النخبة، فيكون أخص من المرفوع"(١٤).

وقال الحاكم: "المسند من الحديث أن يرويه المحدث عن شيخ يظهر سماعه منه لسن يحتملـه وكذلك سماع شيخه من شيخه إلى أن يصل الإسناد إلى صحابي مشهور إلى

رسول الله ﷺ، ومثال ذلك ما حدثناه أبو عمرو عثمان بن أحمد بن السماك ببغداد، ثنا الحسن بن مكرم، ثنا عثمان بن عمر، أخبرنا يونس، عن الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه: أنه تقاضى ابن أبي حدرد ديناً كان عليه في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعه رسول الله ﷺ، فخرج حتى كشف ستر حجرته، فقال: ((يا كعب، ضع من دينك هذا))، وأشار إليه أي الشطر، فقال: نعم، فقضاه(١٥)"(١٦). ومعنى ذلك أن المسند لا يستعمل إلا في المرفوع المتصل الإسناد، ثم ذكر الإمام الحاكم للمسند شروطاً فقال: "وللمسند شرائط غير ما ذكرناه منها: أن لا يكون موقوفاً ولا مرسلاً ولا معضلاً ولا في روايته مدلس، ومن شرائط المسند أن لا يكون في إسناده «أُخْبِرتُ عن فلان» أو «حُدِّثْتُ عن فلان» ولا «بَلَغَني عن فلان» ولا «رَفَعَه فلان» أو «أَظُنُّهُ مرفوعاً»، وغير ذلك مما يفسد به ويجئ مع هذه الشرائط أن لا يحكم لهذا الحديث بالصحيح لأن الصحيح من الحديث لـه شروطٌ أخرى مذكورة في موضعه"(١٧).

وقال ابن عبد البر: "هو ما رفع إلى النبي ﷺ خاصة وقد يكون متصلاً مثل ما رواه مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ، قال: فهذا مسند لأنه قد أسند إلى رسول الله ﷺ وسمعه كل واحد ممن فوقه حتى بلغ النبي ﷺ"(١٨). ومن أمثلته أيضاً: "ما رواه مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن النبي ﷺ، وما رواه مالك عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبي ﷺ، وما رواه معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وما رواه مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ"(١٩).

وعلى هذا فإن المسند والمرفوع يكون بمعنى واحد، وعلق شيخ الإسلام ابن حجر على هذا التعريف بقوله: "وأبعد ابن عبد البر حيث قال: المسند المرفوع، ولم يتعرض للإسناد فإنه يصدق عن المرسل والمعضل والمنقطع إذا كان المتن مرفوعاً ولا قائل به،

وقد يكون المسند منقطعاً مثل ما رواه مالك عن الزهري عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ، وهو منقطع لأن الزهري لم يسمع من ابن عباس"(٢٠).

ومن أمثلته أيضاً: ما رواه مالك عن يحيى بن سعيد عن عائشة عن النبي ﷺ، وما رواه عبد الرحمن بن القاسم عن عائشة عن النبي ﷺ، وما رواه زيد بن أسلم عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ، وما رواه ابن شهاب عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

والاصطلاح الثاني:

يطلق على الكتاب الذي يُجمع فيه ما أسنده الصحابة – أي رووه – قال النووي: "والمسانيد جمع مُسنَد بفتح النون وهو ما تُذكر فيه الأحاديث على أسماء الصحابة حسب السوابق الإسلامية، قال الإمام الخطيب: وهذه الطريقة أحب إلينا في تخريج المسند فيبدأ بالعشرة رضوان الله عليهم ثم يتبعهم بالمتقدمين من أهل بدر أو تبعاً للأنساب وحينئذ يبدأ ببني هاشم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ"(٢١).

ومن أمثلة ذلك مسند الإمام أبي داود الطيالسي وهو أول من ألف في المسانيد(٢٢). وقد يطلق المسند على الكتب المسندة المصنفة على الأبواب وقال العراقي(٢٣): "اشتهر تسميته بالمسند كما سمي الإمام البخاري كتابه بالمسند لكون أحاديثه مسنده إلاّ أنَّ فيه المرسل والمعضل والمنقطع والمقطوع، وذكروا في ترجمة الدارمي أن لـه الجامع والمسند والتفسير وغير ذلك، فلعل الموجود الآن الجامع والمسند قد فُقِد"(٢٤).

أما ترتيب أسماء الصحابة داخل المسند فقد يكون على نسق حروف المعجم أو على السابقة في الإسلام أو القبائل أو البلدان أو غير ذلك(٢٥). والمسانيد كثيرة جداً وقد ذكر الكتاني اثنين وثمانين مسنداً ثم قال والمسانيد كثيرة سوى ما ذكرناه(٢٦).

ومن أمثلته: المسند الكبير لبَقِيّ بن مخلد القرطبي المتوفي سنة ٢٧٦هـ ورتبه على أسماء الصحابة وروي فيه عن ألف وثلاثمائة صحابي ونيف ثم رتب حديث كل

صاحب على أبواب الفقه فجاء كتابه حافلاً مع ثقة مؤلفه وضبطه وإتقانه، ومسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل واشتمل الكتاب على نحو أربعين ألف حديث ورتبه على مسانيد الصحابة لكنه لم يرتب أسماء الصحابة على الحروف إنما راعي أموراً مثل أفضليتهم ومواقع بلدانهم وقبائلهم وغير ذلك(٢٧).

والاصطلاح الثالث:

أن يطلق ويراد به الإسناد فيكون مصدراً كمسند الشهاب ومسند الفردوس أي أسانيد أحاديثهما(٢٨).

وعلم الإسناد يبحث عن صحة الحديث وضعفه ليعمل به أو يترك من حيث صفات الرجال وصيغ الأداء(٢٩). أما المسنِد بكسر النون فهو من يروي الحديث بإسناده سواء كان عنده علم به أو ليس لـه إلا مجرد الرواية(٣٠).

وقد اختلف العلماء في أصح الأسانيد فذكر كل واحد منهم ما أدى إليه اجتهاده ولكل مصنف رواة من الصحابة والتابعين ولهم أتباع وأكثرهم ثقات فلا يمكن أن يقطع الحكم في أصح الأسانيد لصحابي واحد.

قال النووي: "والمختار أنه لا يجزم في إسناد بأنه أصح الأسانيد على الإطلاق لعسر ذلك. وقال الإمام أحمد وإسحق بن راهويه أصحها عن سالم عن أبيه ﷺ، وقال علي بن المديني وعمرو بن الفلاس وغيرهما أصحها محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي ﷺ. وقال يحيى بن معين أصحها الأعمش عن إبراهيم النخعى عن علقمة عن عبد الله بن مسعود. وقال أبو بكر بن أبي شيبة أصحها مالك عن نافع عن ابن عمر. قال الإمام ابن منصور عبد القاهر التميمي: فعلى هذا أصحها الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر لإجماع أهل الحديث على أن الشافعي أجل أصحاب مالك ﷺ أجمعين. وبنى بعض المتأخرين على ذلك وقالوا إن من أجلِّها رواية أحمد بن حنبل عن الشافعي لاتفاق

أهل الحديث على أن أجلَّ من أخذ عن الشافعي الإمام أحمد. وتسمى هذه الترجمة سلسلة الذهب، وليس في مسند الإمام أحمد على كبره بهذه الترجمة سوى حديث واحد وهو في الواقع أربعة أحاديث جمعها وساقها مساق الحديث الواحد"[٣١].

ولا تلازم بين صحة الإسناد وصحة المتن، وليس كل ما صح سنده صح متنه، بل قد يصح الإسناد ولا يصح المتن لشذوذ[٣٢] أو علة[٣٣] قادحة. ولذا قد يعدل نقاد الحديث عن قولهم حديث صحيح إلى قولهم صحيح الإسناد قاصدين من ذلك الحكم بصحة السند من غير أن يستلزم صحة المتن، لجواز أن يكون في المتن شذوذ أو علة. وإذا أرادوا صحة السند والمتن معاً أوردوا العبارة المطلقة فقالوا هذا حديث صحيح[٣٤]، وهذه العبارة المطلقة أرقى من قولهم صحيح الإسناد بشروطها.

المبحث الثاني: أهمية الإسناد

عني علماء الحديث في القديم والحديث عناية بالغة بأسانيد الأحاديث ومعرفة أحوال الرواة من حيث العدالة والضبط وسماع كل واحد عمن فوقه حتى يبلغ به إلى منتهاه، وفيما يلي ذكر بعض ما أورده الأئمة في هذا الشأن مما يدل على ما للإسناد من منزلة عالية عند علماء الأمة وأهمية قصوى في علم الحديث، فمن ذلك مثلاً:

١. ما خرجه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه[٣٥] قال:

"حدثنا حسين بن ربيع، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد بن سيرين[٣٦] قال: ((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)).

وحدثني محمد بن عبد الله بن قهداز من أهل مرو قال سمعت عبدان بن عثمان يقول سمعت عبد الله بن المبارك يقول: ((الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)).

وحدثني محمد بن عبد الله حدثنا العباس بن أبي رزمة قال سمعت عبد الله يعني ابن المبارك(٣٧) يقول: ((بيننا وبين القوم القوائم - يعني الإسناد)).

وقال سمعت أبا إسحق إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال قلت لعبد الله بن المبارك يا أبا عبد الرحمن، الحديث الذي جاء أن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك، قال: فقال عبد الله: ((يا أبا إسحق عمَّن؟)) قال قلت لـه: هذا من حديث شهاب بن خراش، قال: ((ثقةٌ، عمَّن؟)) قال قلت: الحجاج بن دينار، قال: ((ثقةٌ، عمَّن؟)) قال قلت: قال رسول الله ﷺ، قال: ((يا أبا إسحق، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوزَ(٣٨) تنقطع فيها أعناقُ المَطيّ، ولكن ليس في الصدقة اختلاف)). معنى هذه الحكاية أنه لا يقبل الحديث إلا بالإسناد".

٢. ما خرجه الإمام الترمذي رحمة الله عليه(٣٩):

"قال حدثنا محمد بن علي بن الحسن قال سمعت عبدان يقول قال عبد الله بن المبارك يقول: ((الإسناد عندي من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، فإذا قيل لـه من حدثك بقي))، أي بقي حائراً أو ساكتاً، وفي بعض النسخ يقي، ولعل المراد به إن صح أنه يقي نفسه من الكذب.

قال حدثنا محمد بن علي أنا حبان موسى قال ذكر لعبد الله حديث فقال: ((تحتاج لهذا أركان من آجر))، قال أبو عيسى: يعني أنه ضعيف إسناده".

٣. ومما ذكره ابن أبي حاتم(٤٠) قال:

"حدثنا عبد الرحمن أنا أحمد بن عاصم الأنصاري أنا أزهري بن سعد عن عوف عن محمد بن سيرين قال: ((إن هذا العلم دين فلينظر الرجل عمن يأخذ دينه)).

وحدثنا عبد الرحمن أنا نصر بن عبد الله بن مروان البغدادي أنا يونس بن محمد المؤدب(٤١) أنا المغيرة بن محمد أبو المهلب أنا الضحاك بن مزاحم قال: ((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون)).

وحدثنا عبد الرحمن أنا محمد بن إسماعيل الضبي أنا حماد بن زيد عن أنس بن سيرين قال: دخلنا عليه في مرضه فقال: ((اتقوا الله يا معشر الشباب، انظروا ممن تأخذون هذه الأحاديث فإنها من دينكم))".

٤. ومما ذكره ابن عبد البر (٤٢):

"قال حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم حدثنا أحمد بن زهير حدثنا إبراهيم بن عبد الله الهروي حدثنا أبو غياث حدثني أبو سفيان عن هارون بن عنترة قال: قال أبو هريرة: ((إن هذا العلم دين، انظروا عمن تأخذون)).

حدثنا عبد الوارث حدثنا قاسم حدثنا أحمد بن زهير حدثنا الوليد بن شجاع حدثنا ابن المبارك عن ابن لهيعة عن خالد بن يزيد عن عامر بن سعد عن عقبة بن نافع قال لبنيه: ((يا بني لا تقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة)).

وروينا عن ابن معين انه قال كان فيما أوصى به صهيب بنيه أنه قال: ((يا بني لا تقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة)).

وحدثنا أحمد بن قاسم بن عيسى المقرئ حدثنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن شمعون حدثنا محمد بن محمد بن أبي حذيفة حدثنا ربيعة بن الحارث حدثنا محمد بن زياد حدثنا هشيم عن المغيرة عن إبراهيم قال: ((إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)).

حدثنا عبد الوارث حدثنا قاسم حدثنا محمد بن إسماعيل الترمذي قال سمعت ابن أبي أويس يقول سمعت خالي مالك بن أنس يقول: ((إن هذا العلم دين فانظروا

عمن تأخذون دينكم، أدركت سبعين ممن يحدث قال فلان قال رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئاً ولو أن أحدهم اؤتمن على بيت المال لكان أميناً، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن». وذكر عن طريق أحمد بن حنبل أنه قال سمعت يحيى بن سعيد يقول: «الإسناد من الدين»، قال يحيى: وسمعت شعبة يقول: «إنما تعلم صحة الحديث بصحة الإسناد»".

٥. ومما أورده الحافظ ابن عدي(٤٣):

"قال حدثنا محمد بن أحمد بن حمدان البلدي حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي حدثنا عبد الوارث بن مقاتل الخرساني عن خليد بن دعلج عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا العلم دين فلينظر أحدكم ممن يأخذ دينه»"(٤٤).

٦. ومما ذكره الخطيب البغدادي(٤٥):

"من طريق ابن إسماعيل النهشلي قال سمعت ابن المبارك يقول: «طلب الإسناد من الدين»، ومن طريق علي بن المديني قال أبو سعيد الحداد: «الإسناد مثل الدرج ومثل المراقي، فإذا زلت رجلك عن المرقاة سقطت»".

٧. ومما أورده أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله(٤٦):

"قال حدثنا محمد بن أحمد بن علي قال ثنا الحارث بن أبي أسامة قال ثنا عبد الوهاب بن عطاء قال ثنا ابن عون عن محمد بن سيرين قال: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون»".

٨. ومما ذكره أبو حاتم الرازي رحمه الله(٤٧):

"عن الشافعي قال: «مثل الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى و لا يدري».

وقال الثوري: ((الإسناد سلاح المؤمن إذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل)). وقال بقية: ((ذاكرت حماد بن زيد بأحاديث فقال ما أجودها لو كان لها أجنحة))، أي أسانيد".

هذا ولا يخفى على كل ذي بصيرة أن المحدثين بنوا علمهم في نقد الأسانيد على مقياس علمي دقيق وشروط مهمة تكفل لعملية النقد سلامتها وموضوعيتها، وذلك باستقصاء كل العوامل التي قد تؤثر في أداء الراوي، وأن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله لا تعرف صحتها إلا بالإسناد الصحيح، والصحة في الإسناد تحتاج إلى نقل الثقة عن الثقة، ومن أجل ذلك اشتدت عناية المحدثين بما صدر عن النبي ﷺ وحفظوه في صدورهم وبلغوه لمن جاء بعدهم بدقة بالغة وعناية فائقة، وأن كل حديث خلا عن السند كله أو بعضه يعتبر مردوداً لأنه فقد أول شرط من شروط القبول وهو اتصال السند.

المبحث الثالث: بداية البحث في الأسانيد

ظل المسلمون في العهد الأول يتلقون الأحاديث بأسانيد نظيفة خالية من الدس ومبرأة من الكذب على رسول الله ﷺ حتى وقعت الفتنة وظهر الوضع والافتراء على النبي ﷺ وكان الذي تولى كبره المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب(٤٨) حيث تظاهر بوده لسيدنا علي بن أبي طالب ﷺ وأخذ يفسد الشيعة ويقول جئت من قبل المهدي بن الوصي، ويريد ابن الحنفية فتبعه خلق كثير.

وبعد ظهور الفتنة وما أدت إليه من أخطار على السنة المطهرة وغيرها حيث اختلطت أحاديث الرسول ﷺ وآثار الصحابة ﷺ بالكذب والدخيل قيض الله ﷻ لحفظ حديث النبي ﷺ والآثار رجالاً يذودون عن حياض رسول الله ﷺ وينفون عنه الدخيل المدسوس، حيث انبرى هؤلاء العلماء الجهابذة والأئمة الفحول يفتشون عن الأسانيد وينتقون الرواة فيأخذون عن العدل الضابط المستوفي لجميع شروط القبول

ويتركون حديث من لم يكن شأنه كذلك. ووضع هؤلاء الأئمة القواعد التي تميز بين ما يقبل وما يرد من الأحاديث والآثار وبين الثقاة المتقنين والضعفاء المجروحين من الرواة فأسسوا بذلك علماً لم يسبقوا إليه وكان علم أصول الحديث بمثابة معيار أو ميزان لتحقيق الأخبار المروية عن النبي ﷺ أو من دونه، وقد استفاد من هذه القواعد أهل الفنون الأخرى كعلماء التفسير والفقه والتاريخ واللغة وغيرها واستخدموا قواعد المحدثين عند قصد توثيقها والأخذ بها.

قال الإمام مسلم رحمه الله: حدثنا أبو جعفر محمد بن الصباح حدثنا إسماعيل بن زكريا عن عاصم الأحول عن ابن سيرين قال: ((لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظرون إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدعة فلا يؤخذ حديثهم))(٤٩).

وقال الإمام الترمذي رحمه الله: حدثنا محمد بن علي بن علي بن الحسين بن شقيق أنا النضر بن عبد الله الأصم، أنا إسماعيل بن زكريا عن عاصم عن ابن سيرين قال: ((كان في الزمان الأول لا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة سألوا عن الإسناد لكي يأخذوا من أهل السنة ويدعوا أحاديث أهل البدع)). وقال: وكان ابن سيرين رحمه الله هو أول من انتقد الرجال وميز الثقات عن غيرهم(٥٠).

ومعنى ذلك أن محمد بن سيرين قد حاز عصا السبق وهو من أول من فتش عن الرجال وبيّن من تقبل روايته عن غيره.

وقال مسلم: حدثنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي أخبرنا عيسى وهو ابن يونس حدثنا الأوزاعي عن سليمان بن موسى قال لقيت طاوساً فقلت حدثني فلان كيت وكيت قال: ((إن كان صاحبك ملياً فخذ عنه)).(٥١).

قال النووي رحمه الله في قولـه «ملياً» يعني إن كان ثقة ضابطاً متقناً مشهوراً بدينه ومعرفته ويعتمد على معاملته بالمال ثقة بذمته(٥٢).

وقال يعقوب بن أبي شيبة ليحيى بن معين: أتعرف أحداً من التابعيين كان ينتقي الرجال كما ينتقيهم - أي ابن سيرين - فقال برأسه، أي لا(٥٣).

وروي عن الإمام أحمد بن حنبل عن جابر بن نوح عن الأعمش عن إبراهيم قال إنما سئل عن الإسناد أيام المختار وسبب ذلك أنه كثر الكذب على علي رضي الله عنه في تلك الأيام.

كما روي عن شريك عن أبي إسحق قال سمعت خزيمة بن نصر العبسي أيام المختار وهم يقولون ما يقولون من الكذب وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال: ((ما لهم قاتلهم الله، أي عصابة شانوا وأي حديث أفسدوا))(٥٤).

وقال مسلم: حدثنا نصر بن علي الجهضمي حدثنا الأصمعي عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: ((أدركت مائة كلهم ما يؤخذ عنهم الحديث يقال إنهم ليسو أهله))(٥٥).

هذا مع ما كانوا عليه من دين وتقوى وورع وزهد وأمانة إلا أنه قصرت دونهم بعض شروط قبول الأخبار لذا قيل عنهم ليسوا من أهله.

ومما سبق سرده يتضح لنا أنه لما وقعت الفتنة بمقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه تمت الفرقة بين المسلمين وانقسم الناس من بعده إلى أحزاب وفرق، وظهرت الشيعة وغيرها من الفرق. وبمنشأ هذه الفرق بدأ الوضع في حديث رسول الله ﷺ حيث اندس بين رواة الأحاديث أهل البدع والأهواء يختلقون الروايات وينسبونها إلى النبي ﷺ كذباً وافتراءً. وقد انبرى لهم جهابذة الحديث منذ ذلك التاريخ وكشفوا عن أحوالهم، حيث بدأ البحث في رواة الحديث وتتبع مروياتهم والتنقيب عنها، وأوجبوا الجرح للضعفاء

من جهة النصيحة في الدين لتجنب الرواية عنهم، لأن السكوت عن ذلك يؤدي إلى ائتمان الخائن وقبول خبر الفاسق.

المبحث الرابع: اختصاص الأمة بعلم الإسناد

إنَّ الله تعالى كرّم هذه الأمة وشرّفها وفضّلها بالإسناد، وليس لأحد من أفراد الأمم السابقة إسناد، وإنما صحف في أيديهم وقد خلطوا بكتب أنبيائهم أخبارهم، فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات. وأما هذه الأمة فقد نصت الحديث بنقله عن الثقة المعروف في زمانه المشهود لـه بالصدق والأمانة عن مثلـه حتى تناهي أخبارهم. ثم يبحثون أشد البحث ليعرفوا الأحفظ فالأحفظ والأطول مجالسة لمن هو فوقه ممن كان أقل مجالسة ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً أو أكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطوا حروفه ويعدوه عداً، فهذا من أفضل نعم الله على هذه الأمة، نستوزع الله شكر هذه النعمة(٥٦).

قال الإمام أبو حاتم الرازي رحمه الله: ((لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمة يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة))(٥٧).

فالله خص الأمة الإسلامية عن غيرها بالسند المتصل إلى نبيها برواية الثقة عن الثقة، وليس هذه المزية عند أحد من الأمم كما ذكر أهل العلم ودل عليه الواقع، قال الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله: ((إن الله حفظ الأسانيد على أمة محمد ﷺ))(٥٨).

قال الإمام النووي: "الإسناد خصيصة لهذه الأمة وسنة بالغة مؤكدة"(٥٩). وقال السيوطي في تعليقه على كلام النووي: "الإسناد في أصلـه خصيصة فاضلة لهذه الأمة ليست لغيرها من الأمم".

وقد ورد مثل ذلك عن الحافظ أبي الفداء بن كثير حيث قال: "الإسناد من خصائص هذه الأمة وذلك ليس لأمة من الأمم أن تسند عن نبيها إسناداً متصلاً غير هذه الأمة"(٦٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الإسناد من خصائص هذه الأمة وهو من خصائص الإسلام..."(٦١).

ونقل مثل ذلك عن إمام أهل الظاهر ابن حزم قوله: "نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل، وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد في كثير من اليهود لكن لا يقربون فيه من موسى عليه السلام قربنا من محمد ﷺ، بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى عليه السلام أكثر من ثلاثين عصراً وإنما يبلغون إلى شمعون ونحوه، وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق فقط، وأما النقل بالطريقة المشتملة على كذاب أو مجهول العين فكثير في نقل اليهود والنصارى. وأما أقوال الصحابة والتابعين فلا يمكن اليهود أن يبلغوا إلى صاحب نبي أصلاً ولا إلى تابع لـه ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولص"(٦٢).

وقال أبو علي الجياني: "خص الله هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد والأنساب والإعراب، ومن أدلة ذلك ما رواه الحاكم وغيره عن مطر الوراق في قولـه تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، قال: إسناد الحديث"(٦٣).

وقال القرطبي أيضاً: "هو الإسناد وقال: قال الزجاج: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾ أي علامة، والأثارة مصدر من الأثر وهي الرواية"(٦٤).

فهذه بعض أقوال العلماء في خصوصية هذا العلم بهذه الأمة دون غيرها من الأمم، أسال الله أن يلهمنا الرشد ويهدينا سواء السبيل.

ومن خلال ما تقدم من أقوال هؤلاء الأئمة الأعلام يتضح لنا أن أهل الحديث حفظوا - بفضل الله - على الأمة أحكام رسول الله ﷺ، ودونوا أقواله وأفعاله وأحواله كلها في يقظته ومنامه تعظيماً لقدره ﷺ، وتبقى هذه الكرامة التي خصت بها هذه الأمة دون غيرها.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه وذريته وأهل بيته وسلم.

فمن خلال هذا التجوال في ثنايا النصوص النبوية الشريفة وأقوال الأئمة الهداة الأعلام والتنقيب بين سطور الكتب والمصادر نخلص إلى الآتي:

١. اشترط العلماءُ لصحة الحديث شروطاً من أهمها صحة السند من حيث رجالـه عدالة وضبطاً.

٢. وكذلك من هذه الشروط أن يروي هؤلاء الرواة كل عمن فوقه من أول السند إلى منتهاه.

٣. للتأكد من ذلك لابد من الرجوع إلى أقوال العلماء ومقارنتها بعضها ببعض.

٤. خص الله سبحانه الأمة الإسلامية بهذه الخصيصة الشريفة: خصيصة الإسناد.

٥. وضع العلماء قواعد مهمة في التثبت فيما يروى عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين، وهي قواعد تصلح أن تكون معياراً للتحقق من كل الأخبار والآثار.

٦. ظل الحديث خالياً من شوائب الشك والريب إلى أن وقعت الفتنة وانقسم الناس شيعاً وأحزاباً.

٧. اندس وسط رواة الحديث بعض الضعفاء والدجالين يضعون في حديث رسول الله ﷺ كذباً وافتراء لتحقيق أهدافهم الخبيثة ونقض عرى الإسلام ولكن هيهات.

٨. بدأ التثبت في الحديث النبوي منذ عصر الخلافة الراشدة.

٩. حفظ الله سنة نبيه ﷺ بأن هيأ لها رجالاً يذودون عن حياض رسول الله ﷺ ويدرؤون عن سنته دسائس الكذابين ويبينون أوهام الرواة.

١٠. تضافرت جهود العلماء في هذا المجال من أجل خدمة الحديث النبوي الشريف.

١١. لم يخلُ عصر من العصور إلا وفيه للسنة رجال يدعون إلى الاعتصام بهدى النبي ﷺ والتمسك به، وهم الفرقة الناجية كما قال الإمام أحمد عندما سئل عن الفرقة الناجية: إن لم يكونوا أهل الحديث فمن هم؟

١٢. يجب على من يتصدى لرواية الحديث أن يكون عدلاً في روايته مرضياً في اعتقاده وأفعاله سليماً عن أسباب الفسق وخوارم المروءة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه وسلم.

الهوامش

(١) ابن منظور محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، (٣/٢٢٠).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة الحموي الشامي بدر الدين، شيخ الإسلام، المتوفى سنة ٧٢٢هـ. العبر ١/٢٩٣.

(٣) هو العلامة شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي صاحب كتاب الخلاصة في علوم الحديث المتوفي سنة ٧٤٣هـ. كشف الظنون ١/٧٢٥.

(٤) المتن هو ما انتهى إليه السند من الكلام. نزهة النظر ص١١٤.

(٥) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، تدريب الراوي شرح تقريب النواوي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ١/٤١.

(٦) هو الإمام الحافظ الناقد العلامة المفتي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت صاحب التصانيف وخاتمة الحفاظ. تاريخ دمشق، ٥/٣٥.

(٧) المعنعن: هو الذي قيل فيه فلان عن فلان. التقريرات السنية ١/٣٧.

(٨) هو المروي عن الصحابة من من قول أو فعل. تدريب الراوي، ١/١٨٤.

(٩) هو ما رفعه التابعي إلى النبيﷺ، وقد أسقط من سنده الواسطة التي بينه وبين النبيﷺ. معرفة علوم الحديث، ١/٦٤.

(١٠) المعضل: هو ما سقط من أثناء سنده راويان أو أكثر بشرط التوالي. التقييد والإيضاح، ٧٩.

(١١) التدليس لغة إخفاء العيب، وينقسم عند المحدثين إلى أقسام منها: تدليس الإسناد وتدليس الشيوخ،...، الكفاية في علم الرواية، ١/٢٢، المنهل الروي، ١/٧٢.

(١٢) هو الإمام العلامة أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي الحافظ المتوفى سنة ٤٦٣هـ، سير أعلام النبلاء، ١٨/١٥٣.

(١٣) هو الحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ، ذيل تذكرة الحفاظ، ١/٣٢٦.

(١٤) السيوطي، مصدر سابق، ١/١٨٢.

(١٥) صحيح البخاري كتاب الصلاة باب التقاضي والملازمة في المسجد ١/١٧٤ ح (٤٤٥) وكتاب الخصومات باب كلام الخصوم بعضهم في بعض ٢/٨٥١ ح (٢٢٨٦) وسنن النسائي كتاب آداب القضاة باب حكم الحاكم في داره ٨/٢٣٩ ح (٥٤٠٨).

(١٦) الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، معرفة علوم الحديث، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص١٩.

(١٧) الحاكم، مصدر سابق، ص١٨.

(١٨) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٨١م، ٢١/١.

(١٩) النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، إرشاد طلاب الحقائق، دار اليمامة، تحقيق نور الدين عتر، ص٧٤.

(٢٠) القاري، نور الدين أبو الحسن علي بن سلطان، شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر، دار الأرقم، بيروت، ص٦١٣.

(٢١) السيوطي، مصدر سابق، ٧٧/١.

(٢٢) التلمساني، محمد بن أحمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الفكر، ط١، ١٩٨٦م، ٨٥/١.

(٢٣) عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن أحد حفاظ الحديث المشهور بالعراقي المتوفى سنة ٨٠٦هـ. معجم المؤلفين ٢٠٤/٥.

(٢٤) السيوطي، مصدر سابق، ١٧٤/١.

(٢٥) محمود الطحان، أصول التخريج ودراسة الأسانيد، ط٤، ١٩٨٢م، ص٤٠.

(٢٦) الكتاني، محمد بن جعفر، الرسالة المستطرفة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص٧٤.

(٢٧) السيوطي، مصدر سابق، ٤٢/١.

(٢٨) السيوطي، المصدر السابق، ٧٨/١.

(٢٩) صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٧، ١٩٨٨م، ص١٥.

(٣٠) السيوطي، مصدر سابق، ٤٣/١.

(٣١) النووي، إرشاد طلاب الحقائق، ص٥٨-٥٩، السيوطي، مصدر سابق، ٧٨/١.

(٣٢) الشذوذ مخالفة الثقة من هو أولى منه. توجيه النظر، ١٨٠/١.

(٣٣) العلة سبب خفي يقدح في صحة الحديث مع أن الظاهر السلامة منه. النكت على مقدمة ابن الصلاح، ١٠٣/١.

(٣٤) صبحي الصالح، مصدر سابق، ص١٥٤.

(٣٥) الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري، مقدمة الصحيح، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢ هـ، ٨٤/١.

(٣٦) هو الإمام محمد بن سيرين، أبو بكر الأنصاري البصري مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، وكان والده

من سبي جرجرايا، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سمع عدداً من الصحابة وكان فقيهاً عالماً ورعاً شديداً على أهل البدع. توفي سنة ١١٠هـ. الكاشف، ٥٩١/١، تذكرة الحفاظ، ٢٧٤/١.

(٣٧) هو الإمام عبد الله بن المبارك المروزي الحافظ الثقة الثبت الفقيه الورع التقي الجواد المجاهد، توفي سنة ١٨١هـ. تقريب التهذيب، ٤٤٥/١.

(٣٨) المفازة: البرية القفر، سميت بذلك لأنها مهلكة من فوز إذا مات، وقيل سميت بذلك تفاؤلاً من الفوز أي النجاة. النهاية في غريب الأثر، ٤٧٨/٣.

(٣٩) ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الحنبلي، شرح علل الترمذي، دار العطاء، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط٤، ٢٠٠١م، ٥٧/١.

(٤٠) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، الجرح والتعديل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٣٠٨/١.

(٤١) المؤدب لفظ يطلق على معلمي الصبية القراءة والكتابة.

(٤٢) ابن عبد البر، مصدر سابق، ٤٥/١.

(٤٣) ابن عدي، عبد الله بن عدي الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٢٥١/١.

(٤٤) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، مكتبة المعارف، الرياض، ٥٠٣/٥: "رواه تمام وابن عدي في مقدمة الكامل والسهمي في تاريخ جرجان والهروي في ذم الكلام والديلمي في مسند الفردوس من طريق خليد بن دعلج عن قتادة عن أنس مرفوعاً، قلت: وهذا إسناد ضعيف جداً، خليد بن دعلج متروك،...، وقال - يعني القاضي عياضاً -: قال أبو نعيم: والصحيح وقفه على محمد بن سيرين،...، وقال الهروي: هذه كلها عجائب مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضي الله عنهم، وهو عن التابعين أثبت".

(٤٥) الخطيب، أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر البغدادي، الكفاية في علم الرواية، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، تحقيق أبي عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني، ص١٩٢.

(٤٦) أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ٢٧٨/٢.

(٤٧) العراقي، فتح المغيث، مصدر سابق، ٤٥/١.

(٤٨) كان من كبار ثقيف وذوي الرأي والفصاحة والدهاء وقلة الدين، وكان قد ادعى أنه يأتيه الوحي ويعلم الغيب، وتظاهر بوده لعلي رضي الله عنه، وقد أخذ يفسد الشيعة ويقول: جئتكم من قبل المهدي بن الوصي، يريد محمد بن الحنفية، فتبعه كثير من الناس. سير أعلام النبلاء، ٥٣٨/٣.

(٤٩) مسلم، مقدمة الصحيح، ٨٤/١.

(٥٠) ابن رجب، شرح علل الترمذي، مصدر سابق، ٥٢/١.

(٥١) مسلم، مصدر سابق، ٥٢/١.

(٥٢) النووي، شرح صحيح مسلم، ٨٤/١.

(٥٣) ابن رجب، مصدر سابق، ٥٢/١.

(٥٤) أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، المدخل إلى السنن الكبرى، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ١٤٠٤هـ، تحقيق د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ص١٣٢.

(٥٥) مسلم، مقدمة الصحيح، مصدر سابق، ٨٤/١.

(٥٦) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ٥/٣.

(٥٧) أبو حاتم، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البستي، المجروحين، دار الوعي، حلب، تحقيق محمود إبراهيم زايد، ٢٦/١.

(٥٨) السخاوي، مصدر سابق، ٦/٣.

(٥٩) السيوطي، تدريب الراوي، مصدر سابق، ١٥٩/٢.

(٦٠) أحمد شاكر، الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث، دار المساجد والمشاريع الخيرية، الرياض، ط٢، ١٩٩٧م، ص١٥٢.

(٦١) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، القواعد والفوائد الحديثية، ط١، ١٩٩٦م، تحقيق علي العمراني، ٤١/٢.

(٦٢) السيوطي، تدريب الراوي، مصدر سابق، ١٥٩/٢.

(٦٣) نفس المصدر، ١٥٩/٢.

(٦٤) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، ١٨٢/١٦.